

الحمد لله الذي وفقنا لتأليف رسالتنا هذه التي ألفت
 لأخام المولود، زسل بابا الأهرتسي وتبكيته وفُضل فيه
 كل امرئ تكينه وسميت

اتمام الحجة

على الذي ليج وزاغ

عز الحجة

وطبعت في مطبع كلارمخت في بلدة لاهور سنة ١٣٤٥ هـ

قيمت في طبر ٣٥

تعداد جلد ٤٠٠

صورة غلاف الطبعة الأولى لهذا الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي يقيم حجته في كل زمان، ويجدد ملته في كل أوان، ويبعث مصلحا عند كل فساد، وينتاب الخلق منه هاد بعد هاد، ويمنّ على عباده بإراءة طرق سداد، ويسوي الصراط للمتأهّبين. يهدي الخلق بكتابه إلى أسراره، ولا يُسمَح عقل بكشف أستاره، يُلقي الروح على من يشاء من عباده، ويفتح على من يشاء أبواب إرشاده، فلا يغشاه درنٌ ولا ينتطحه قرنٌ، ويُدخله في الطيبين. يدعو من يشاء، ويطرده من يشاء، ويُخيّب من يشاء، ويُعطي من يشاء من نعماء عظمى، ويجعل رسالاته حيث يشاء، ويعلم من بها أحقّ وأولى. الناس كلهم ضالّون إلا من هداه، وكلهم ميّتون إلا من أحياه، وكلهم عميٌّ إلا من أراه، وكلهم جياع إلا من غذاه، وكلهم عطاش إلا من سقاه، ومن لم يهده فلا يكون من المهتدين.

والصلاة والسلام على رسوله ومقبوله محمد خير الرسل وخاتم النبيين، الذي جاء بالنور المنير، ونجّى الخلق من الظلام المبير، وخلص السالكين من اعتياص المسير، وهياً لهم زاداً غير اليسير، وآتى صحفاً مُطهّرة كشجرة طيبة، اغتذى كل طالب بجنى عُودها، ورغبت كل فطرة سليمة في استشارة سعودها، وما بقي إلا الذي كان شقيّاً الأزل ومن المحرومين.

والسلام على آله الطيبين الطاهرين، الذين أشرقت الأرض بنورهم، وظهر الحق بظهورهم، ولا شك أنهم كانوا بُدورَ الإمامة، وجبال طرق الاستقامة، ولا يُعاديهم إلا من كان مورد اللعنة، وزائغا عن المحجّة، ورحم الله رجلا جمع حُبهم مع حبّ الصُحبة أجمعين. وعلى أصحابه وصفوة أحبابه الذين كانوا له أتبع من ظلّه، وأطوع من فعله. تركوا بروق الدنيا وزينتها بروية لعلّه؛ ونهضوا إلى ما أمروا بإذعان القلب وسعادة السيرة، وجاهدوا في الله على ضعف من الميرة، وما كانوا قاعدين. تبتّلوا إلى الله تبتيلا، وجمعوا خزائن الآخرة وما ملكوا من الدنيا فتيلا، وما مالوا إلى امتراء الميرة، وبذلوا أنفسهم لإشاعة الملة، وقفوا ظلّالَ رسول الله ﷺ حتى صاروا من الفانين. شروا أنفسهم ابتغاء مرضاة الرب اللطيف، ورضوا لمرضاته بمفارقة المألّف والأليف، وأنحوا أبصارهم عن الدنيا وما فيها، وأخذتهم جذبةً عظمي فجدبوا إلى الله ربّ العالمين.

أما بعد.. فاعلم أن أخوة الإسلام يقتضي النصح وصدق الكلام، ومن أُعطيَ علما من علوم فأخفاه كسرّ مكتوم فهو أحد من الخائنين. وإن العلوم لا تنتهي دقائقها، ولا تُحصى حقائقها، ولا مانع لظهورها، ولا محاق لبدورها، وكم من علم تُرك للآخرين. وقد علّمني ربّي من أسرار، وأخبرني من أخبار، وجعلني مجدّد هذه المائة، وخصّني في علومه بالبسطة والسعة، وجعلني لرسله من

الوارثين. وكان من مفائح* تعليمه، وعطايا تفهيمه، أن المسيح عيسى بن مريم قد مات بموته الطبيعي وتوفي كإخوانه من المرسلين. وبشّرني وقال إن المسيح الموعود الذي يرقبونه والمهدي المسعود الذي ينتظرونه هو أنت، نفعل ما نشاء فلا تكوننّ من الممترين. وقال: **إنا جعلناك المسيح ابن مريم، ففضّ ختم سرّه وجعلني على دقائق الأمر من المطلعين.** وتواترت هذه الإلهامات، وتتابعت البشارات، حتى صرتُ من المطمئنين. ثم تخيّرتُ طريق الحزامة، ورجعتُ إلى كتاب الله خفير طرق السلامة، فوجدته عليه أوّل الشاهدين. وأيّ بيان يكون وضح ♦ من بيانه: ﴿يا عيسى إني مُتوفّيك﴾؟ فانظر، هداك الله قبل توفّيك وجعلك من المستبصرين. وأكده الله بقوله: ﴿فلما توفّيتني﴾، ففكر فيّ يا من آذيتني، وحسبتني من الكافرين. وهذا نصّ لا يرده قولُ مبارٍ بآثار، ولا يجرحه سهمُ مُمارٍ في مضمار، ولا ينكره إلا من كان من الظالمين. والذين غاض دُرُّ أفكارهم، وضعفت جوازل أنظارهم، لا ينظرون إلى كتاب الله وبيّناته، ويتيهون كرجل تبع جهلاته، ويتكلمون كمجانين. يقولون إن لفظ التوفّي ما وُضع لمعنى خاص بل عمّت معانيه، وما أحكمت مبانيه، وكذلك يكيدون كالمفترين.

* يبدو أنه سهو الناسخ ولعل الصحيح "منايح". (الناشر)
♦ هذا سهو من الناسخ والصحيح "أوضح". (الناشر)

وإذا قيل لهم إن هذا اللفظ ما جاء في القرآن كتاب الله الرحمن إلا للإمامة وقبض الأرواح المرجوعة، لا لقبض الأجسام العنصرية، فكيف تصرّون على معنى ما ثبت من كتاب الله وبيان خير المرسلين ﷺ؟ قالوا إننا ألفينا آباءنا على عقيدتنا ولسنا بتاركيها إلى أبد الآبدين.

ثم إذا قيل لهم إن خاتم النبيين وأصدق المفسرين فسّر هكذا لفظ التوفي في تفسير هذه الآية؛ أعني: «تَوْفِيَّتِي»، كما لا يخفى على أهل الدراية، وتبعه ابن عباس ليقطع عرق الوسواس، وقال: متوفيك: مميتك، فلم تتركوا المعنى الذي ثبت من نبي كان أول المعصومين، ومن ابن عمّه الذي كان من الراشدين المهديين؟ قالوا: كيف نقبل ولم يعتقد بهذا آباؤنا الأولون؟ وما قالوا إلا ظلمًا وزورًا ومن الفرية ولم يحيطوا آراء سلف الأمة إلا الذين قربوا منهم من المخطئين، وما تبعوا إلا الذين ضلّوا من قبل من فيج أعوج ومن قوم محجوبين. فما زالوا آخذين بآثارهم حتى ححصص الحق، فرجع بعضهم متندمين. وأمّا الذين طبع الله على قلوبهم فما كانوا أن يقبلوا الحق وما نفعمهم وعظ الواعظين. والعلماء الراسخون يكون عليهم ويجدوهم على شفا حفرة نائمين.

يا حسرة عليهم! لم لا يفكّرون في أنفسهم أن لفظ التوفي لفظ قد اتضح معناه من سلسلة شواهد القرآن، ثم من تفسير نبي الإنس

ونبيّ الجنّ، ثم من تفسير صحابيّ جليل الشان، ومن فسّر القرآن برأيه فهو ليس بمؤمن بل هو أخ الشيطان، فأبي حجة أوضح من هذا إن كانوا مؤمنين؟ ولو جاز صرفُ ألفاظ تحكُّمًا من المعاني المرادة المتواترة، لارتفع الأمان عن اللغة والشرع بالكلية، وفسدت العقائد كلها، ونزلت آفات على الملة والدين. وكل ما وقع في كلام العرب من ألفاظ وجب علينا أن لا ننحت معانيها من عند أنفسنا، ولا نقدّم الأقلّ على الأكثر إلا عند قرينة يوجب * تقديمه عند أهل المعرفة، وكذلك كانت سُنن المجتهدين.

ولما تفرقت الأمة على ثلاث وسبعين فرقة من الملة، وكلُّ زعم أنه من أهل السنّة، فأبي مخرج من هذه الاختلافات، وأي طريق الخلاص من الآفات من غير أن نعتصم بحبل الله المتين؟ فعليكم معاشر المؤمنين باتباع الفرقان، ومن تبعه فقد نجا من طرق الخسران. ففكروا الآن.. إن القرآن يتوفّي المسيح ويكمل فيه البيان، وما خالفه حديثٌ في هذا المعنى بل فسّره وزاد العرفان، وتقرأ في البخاري والعيني وفضل الباري أن التوفّي هو الإمامة، كما شهد ابن عباس بتوضيح البيان، وسيّدنا الذي إمام الإنس ونبيّ الجنّ، فأبي أمر بقي بعده يا معشر الإخوان وطوائف المسلمين؟ وقد أقرّ المسيح في القرآن أن فساد أمته ما كان إلا بعد موته،

* يبدو أنه سهو الناسخ والصحيح "توجب". (الناشر)

فإن كان عيسى لم يمت إلى الآن، فلزمك أن تقول إن النصارى ما أفسدوا مذهبهم إلى هذا الزمان. والذين نحتوا معنى آخر للتوفي فهو بعيد عن التشفي، وإن هو إلا من أهوائهم، وفساد آرائهم، ما أنزل الله به من سلطان، كما لا يخفى على أهل الخبرة وقلب يقظان. وإن لم ينتهوا حقداً، وأصروا على الكذب عمداً، فليُخرجوا لنا على معناهم سنداً، وليأتوا من الله ورسوله بشرح مستند إن كانوا صادقين. وقد عرفتم أن رسول الله ﷺ ما تكلم بلفظ التوفي إلا في معنى الإمامة، وكان أعمق الناس علماً وأوّل المبصرين. وما جاء في القرآن إلا لهذا المعنى، فلا تحرفوا كلمات الله بخيال أدنى، ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذبَ ذلك حق وهذا باطل، واتقوا الله إن كنتم متقين.

لِمَ تتبعون غلطاً ورجماً بالغيب، ولا تبغون تفسير مَنْ هو منزّه من العيب، وكان سيّد المعصومين؟ فاجتنبوا مثل هذه التعصبات، واذكروا الموت يا دُودَ الممات، أتتركون في الدنيا فرحين؟ فاذكروا يوماً يتوفاكم الله ثم تُرجعون إليه فرادى فرادى، ولا ينصركم مَنْ خالف الحق وعادى، وتُسألون كالمجرمين.

وأما قول بعض الناس من الحمقى أن الإجماع قد انعقد على رفع عيسى إلى السماوات العُلى بحياته الجسماني ♦ لا بحياته الروحاني ♦،

♦ يبدو أنه سهو والصحيح: "الجسمانية" و"الروحانية". (الناشر)

فاعلم أن هذا القول فاسد ومتاع كاسد، لا يشتره إلا من كان من الجاهلين. فإن المراد من الإجماع إجماع الصحابة، وهو ليس بثابت في هذه العقيدة، وقد قال ابن عباس: متوفيك: مميئك، فالموت ثابت وإن لم يقبل عفرتيك. وقد سمعتَ يا من آذيتني أن آية: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ تدل بدلالة قطعية وعبرة واضحة أن الإمامة التي ثبتت من تفسير ابن عباس، قد وقعت وتمت وليس بواقع كما ظن بعض الناس. أفأنت تظن أن النصارى ما أشركوا برهم وليسوا في شرك كالأسارى؟ وإن أقررت بأنهم قد ضلوا وأضلوا، فلزمك الإقرار بأن المسيح قد مات وفات، فإن ضلالتهم كانت موقوفة على وفاة المسيح، فتفكر ولا تُجادل كالوقيح. وهذا أمر قد ثبت من القرآن، ومن حديث إمام الإنس ونبى الجن، فلا تسمع رواية تخالفها، وإن الحقيقة قد انكشفت فلا تلتفت إلى من خالفها، ولا تلتفت بعدها إلى رواية الراوي، ولا تُهلك نفسك من الدعاوي، وفكر كالمواضعين.

هذا ما ذكرناك من النبى والصحابة لنزيل عنك غشاوة الاسترابة، وأما حقيقة إجماع الذين جاءوا بعدهم، فذكرك شيئاً من كلمهم، وإن كنت من قبل من الغافلين.

فاعلم أن الإمام البخاري، الذي كان رئيس المحدثين من فضل البارى، كان أول المقرين بوفاة المسيح، كما أشار إليه في الصحيح،

فإنه جمع الآيتين لهذا المراد، ليتظاهرا ويحصل القوة للاجتهاد. وإن كنتَ تزعم أنه ما جمع الآيتين المتباعدتين لهذه النية، وما كان له غرض لإثبات هذه العقيدة، فبيِّنْ لِمَ جمع الآيتين إن كنتَ من ذوي العينين؟ وإن لم تبين، ولن تبين، فاتق الله ولا تُصرَّ على طرق الفاسقين.

ثم بعد البخاري انظروا يا ذوي الأبصار، إلى كتابكم المسلم "مجمع البحار"، فإنه ذكر اختلافات في أمر عيسى عليه السلام، وقدم الحياة ثم قال: وقال مالك: مات. فانظروا "المجمع" يا أهل الآراء، وخذوا حظاً من الحياء، هذا هو القول الذي تكفرون به وتقطعون ما أمر الله به أن يوصل وبعدم عن مقام الاتقاء، أليس منكم رجل رشيد يا معشر المفتنين؟

وجاء في الطبراني والمستدرک عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن عيسى بن مريم عاش عشرين ومائة سنة. ثم بعد هذه الشهادات، انظروا إلى ابن القيم المحدث المشهود له بالتدقيقات، فإنه قال في "مدارج السالكين" إن موسى وعيسى لو كانا حيَّين ما وسعهم* إلا اقتداء خاتم النبيين. ثم بعد ذلك انظروا في الرسالة "الفوز الكبير وفتح الخبير" التي هي تفسير القرآن بأقوال خير البرية، وهي من ولي الله الدهلوي حكيم الملة، قال: متوفيك: مميَّتْ. ولم

* يبدو أن الألف سقط هنا سهواً والصحيح "وسعهما". (الناشر)

يقل غيرها من الكلمة، ولم يذكر معنى سواها أتباعا لمعنى خرج من مشكاة النبوة. ثم انظر في "الكشاف"، واتفق الله ولا تختَر طرق الاعتساف كمجتريين.

ثم بعد ذلك تعلمون عقيدة الفرق المعتزلة، فإنهم لا يعتقدون بحياة عيسى، بل أقرّوا بموته وأدخلوه في العقيدة. ولا شك أنهم من المذاهب الإسلامية، فإن الأمة قد افتقرت بعد القرون الثلاثة، ولا ينكر افتراق هذه الملة، والمعتزلة أحد من الطوائف المتفرقة. وقال الإمام عبد الوهاب الشعراني المقبول عند الثقات، في كتابه المعروف باسم "الطبقات": وكان سيدي أفضل الدين رحمه الله يقول: كثير من كلام الصوفية لا يتمشى ظاهره إلا على قواعد المعتزلة والفلاسفة، فالعقل لا يُبادر إلى الإنكار بمجرد عزاء ذلك الكلام إليهم، بل ينظر ويتأمل في أدلتهم. ثم قال: ورأيت في رسالة سيدي الشيخ محمد المغربي الشاذلي: اعلم أن طريق القوم مبني على شهود الإثبات، وعلى ما يقرب من طريق المعتزلة في بعض الحالات. هذا ما نقلنا من لوائح الأنوار، فتدبر كالأخيار، ولا تعرض كالأشرار، ولا تختَر سبل المعتدين.

وإن قلتَ إن الإجماع قد انعقد على عدم العمل بالمذاهب المخالفة للأئمة الأربعة، فقد بينّا لك حقيقة الإجماع، فلا تصلُ كالسباع، وفكرٌ كأولي التقوى والارتياح، واذكر قول الإمام أحمد

الذي خاف الله وأطاع، قال: من ادّعى الإجماع فهو من الكاذبين. ومع ذلك نجد كثيرا من الاختلافات الجزئية في الأئمة الأربعة، ونجدها خارجة من إجماع الأئمة، فما تقول في تلك المسائل وفي قائلها؟ أنت تقرّ بغوائلها، أو أنت تجوّز العمل عليها والتمسك بها ولا تحسبها من خيالات المتبدّعين؟ وأنت تعلم أن الإجماع ليس معها ومع أهلها، وكل ما هو خارج من الإجماع فهو عندك فاسد ومتاع كاسد، وتحسب قائلها من الملحدّين الدجالين. وإن كنت تزعم أن الإجماع قد انعقد على حياة عيسى المسيح بالسند الصحيح والبيان الصريح، فهذا افتراء منك ومن أمثالك، ألا لعنة الله على الكاذبين المفترين.

أيها المستعجلون.. لمّ تسعون مكذّبين؟ ومن أعظم المهالك تكذيب قوم كشف عليهم ما لم يكشف على غيرهم من دقائق سبيل الحق واليقين. وكم من أناس ما أهلكهم إلا ظنونهم، وما أرداهم إلا سبّ الصادقين. دخلوا حضرة أهل الله مجترئين، وما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين.

وإن المنكرين رموا كل سهم وتبعوا كل وهم، فما وجدوا مقاما في هذا الميدان، وجاهدوا كل جهد فما بقي عندهم سوى الهديان، فلما انثلت الكنائس، ونفدت الخزائن، ولم يبق مفرّ ولا مأب، ولا ثنية ولا ناب، مالوا إلى السبّ والتكفير، والمكر والتزوير، لعلهم

يغلبون بهذا التدبير، حتى اجترأ بعض الناس من وساوس الوسواس الخناس على أن يخدع بعض العوام بصيرير الأقلام، فألف كتابا لهذا المرام، وقيّض القدر لهتك ستره أنه أشاع الكتاب بشرط الإنعام، وزعم أنه سكتنا وبكتنا وأدّى مراتب الإفحام، وصار من الغالبيين. فنهضنا لنعجم عودَ دعواه، وماء سقياه، ونمزق الكذاب وبلواه، ونُري جنوده ما كانوا عنه غافلين. فإن إنعامه أوحشَ الذين هم كالأنعام، وإعلامه أوهشَ بعضَ العيَلام، وما علموا خبث قوله وضعف صوله، وحسبوا سرا به كماء معين. وكنتُ آليتُ أن لا أتوجّه إلا إلى أمر ذي بال، ولا أضيع الوقت لكل مناضل ونضال، ورأيتُ تأليفه مملوًا من الجهلات، ومشحونا من الخزعبلات، ومجموعا من ديدن الغباوة، وموضوعا من قريحة الشقاوة، فمنعتني عزّةٌ وقتي وجلالة همتي أن ألطّخ يديّ بدم هذا الدود، وأبعد عن أمر المقصود، ولكني رأيت أنه يخدع كلَّ غمر جاهل بإراءة إنعامه وتُرّهات كلامه، ولو صممتنا فلا شك أنه يزيد في اجترامه، ويخدع الناس بتزوير إفحامه، وإنه ولج الفخّ فنى أن نأخذه ثم نذبجه للجائعين. وإنه يطير طيران الجراد، ليأكل زرع رب العباد، فرأينا لتأييد عين الحقيقة ومجاريها، أن نصطاد هذه الجراد مع ذراريها، ونُنج الخلق من كيد الخائنين. فوالذي حباننا بمحبّته، ودعانا إلى تأييد أحبّته، إننا لا نرغب في عطاء هذا الرجل وإنعامه، بل نحسبه فضولا كفضول كلامه، وما نريد إلا أن نُريه جزاء اجترامه، لئلا يغترّ بعض

الجهلة من المتعصّبين.

فاعلم يا من أَلَفَ الكتاب ويطلب منّا الجواب، إنا جئناك راغبين في استماع دلائلك، لننجيك من غوائلك، ونجیح أصل رذائلك، ونريك أنك من الخاطئين. وأنت تعلم أن حمل الإثبات ليس علينا بل على الذي ادّعى الحياة ويقول إن عيسى ما مات وليس من الميتين. فإن حقيقة الادّعاء اختيار طرق الاستثناء بغير أدلة دالة على هذه الآراء، أعني إدخال أشياء كثيرة في حكم واحد، ثم إخراج شيء منه بغير وجه الإخراج وسبب شاهد، وهذا تعريف لا ينكره صبي ولا غبي، إلا الذي كان من تعصّبه كالمجنونين.

فإذا تقرّر هذا فنقول إنّنا نظرنا إلى زمان بُعث فيه المسيح، فشهد النظر الصحيح أنه كل من كان في زمانه من أعدائه وأحبّائه وجيرانه، وإخوانه وخلانته وخالاته، وأمّهاته وعمّاته وأخواته، وكل ما كان في تلك البلدان والديار والعمران، كلهم ماتوا وما نرى أحدا منهم في هذا الزمان؛ فمن ادّعى أنّ عيسى بقي منهم حيّا وما دخل في الموتى فقد استثنى، فعليه أن يُثبت هذا الدعوى.

وأنت تعلم أن الأدلة عند الحنفيين لإثبات ادعاء المدّعين أربعة أنواع كما لا يخفى على المتفقهين.

الأول: قطعيّ الثبوت والدلالة وليس فيها شيء من الضعف والكلالة، كآيات القرآنية الصريحة، والأحاديث المتواترة

الصحيحة، بشرط كونها مستغنية من تأويلات المؤولين، ومنزّهة عن تعارض وتناقض يوجب الضعف عند المحققين.

الثاني: قطعي الثبوت ظني الدلالة، كالأيات والأحاديث المؤولة مع تحقق الصحة والأصالة.

الثالث: ظني الثبوت قطعي الدلالة، كالأخبار الآحاد الصريحة مع قلة القوة وشيء من الكلالة.

الرابع: ظني الثبوت والدلالة، كالأخبار الآحاد المحتملة المعاني والمشتبهة.

ولا يخفى أن الدليل القاطع القوي هو النوع الأول من الدلائل، ولا يمكن من دونه اطمينان السائل. **فإن الظن لا يُعني من الحق شيئاً**، ولا سبيل له إلى يقين أصلاً. ولم أزل أرقب رجلاً يدعي اليقين في هذا الميدان، وأتشوّف إلى خبره في أهل العدوان، فما قام أحد إلى هذا الزمان، بل فرّوا مني كالجبان، فأودعتهم كاليائسين وانطلقت كالمفردين، إلى أن جاءني بعد تراخي الأمد، تلك رسالتك يا ضعيف البصر شديد الرمد، ونظرت إليه نظرة وأمعت فيه طرفة، فعرفت أنه من سقط المتاع، ومما يستوجب أن يُخفى ولا يُعرض كالبعاع. ولو غشيك نور العرفان، وأمعت كرجل له عينان، لسترت عوارك، وما دعوت إليه جارك، ولكن الله أراد أن يُخزيك، ويُري الخلق خزيك، فبارزت وأقبلت، وفعلت ما فعلت، وزوّرت

وسوّلت، وكتبت في كتابك الإنعام، لثُرّضي به الأنعام، ولكن رتقتَ وما فتقت، وخذعتَ في كل ما نطقت، وإنا نعلم أنك لست من المتمولين.

ومع ذلك لا نعرف أنك صادق الوعد ومن المتقين، بل نرى حياتتك في قولك كالفاسقين. فما الثقة بأنك حين تُغلب وترتعد ستفي بما تعد؟ وقد صار الغدر كالتحجيل في حلية هذا الجليل، فإن وردت غدِير الغدر، فمن أين نأخذ العَيْن يا ضيقَ الصدر؟ وما نريد أن تُرجع الأمر إلى القضاة ونحتاج إلى عون الولاة، ونكون عرضة للمخاطرات. ونعلم أنك أنت من بني غبراء، لا تملك بيضاء ولا صفراء، فمن أين يخرج العَيْن مع خصاصتك وإقلالك وقلة مالك؟ ومع ذلك للعزائم بدواتٌ، وللعِدات معقبات، وبيننا وبين النَجْز عقبات، ولا نأمن وعدكم يا حزب المبطلين. فإن كنتَ من الصادقين لا من الكاذبين الغدّارين، وصدقت في عهد إنعامك وما نويتَ حنثاً في إقسامك، فالأمر الأحسن الذي يسرد غواشي الخطرات، ويبيح أصل الشبهات، ويهدي طريقاً قاطع الخصومات، أن تجمع مال الإنعام عند رئيس من الشرفاء الكرام، ونحن راضون أن تجمع عند الشيخ غلام حسن أو الخواجه يوسف شاه أو المير محمود شاه قطعاً للخصام، ونأخذ منهم سنداً في هذا المرام، فهل لك أن تجمع عينك عند رجلٍ سواء بيني وبينك، أو لا تقصد سبيل المنصفين؟ وإنا لا نعلم مكنون طويتك، فإن كنت كتبت الرسالة من

صحة نيتك، لا من فساد طبيعتك، فقم غير وان ولا لاو إلى عدوان، واعمل كما أمرنا إن كنت من الصادقين. وإنا جئناك مستعدين ولسنا من المعرضين ولا من الخائفين، بل نُسرُّ بالإقدام ولو على الضرغام، ولا نخاف أمثالك من الناس، بل نحسبهم كالشعالب عند البأس. وأزمعنا أن نفتش خبائك، ونستنفذ حقيبتك، ونحسر اللثام عن قربتك، وقلما خلص كذاب أو بورك له اختلاب، وقد بقينا عامًا لا نخشَن كلامًا، ولا نجيب مكفرًا ولوأمًا، وصبرنا ورأينا اجلخماما، حتى أبلأنا مرارة الكلمات إلى جزاء السيئات بالسيئات، وعلاج الحيات بالعصي والصفاة، فقمنا لنهتك أستار الكاذبين.

فلا نلتفت إلى القول العريض، ونريد أن تبرز إلينا بالصفر والبيض، وتجمع مبلغك عند أحد من الرجال الموصوفين، وتأمرهم ليعطوني مبلغك عندما رأوك من المغلوبين. فإن لم تفعل فكذبك واضح، وعذرك فاضح، ألا لعنة الله على الكاذبين، ألا لعنة الله على الغادرين الناكثين، الذين يقولون ولا يفعلون، ويعاهدون ولا ينجزون، ولا يتكلمون إلا كالخادعين المزورين، فعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. فاتق لعنة الله وأنجز ما وعدت كالصادقين. وإن كنت لا تقدر على الإيفاء، وليس عندك مال كالأمرء، فاطلب لعونك قوما يأسون جراحك ويريشون جناحك، فإن كانوا من المصدقين المعتقدين، فيعينونك كالمريدين، مع أن دين

القوم جبرُ الكسير وفكُّ الأسير، واحترام العلماء واستنصاح النصحاء. على أنك لن تطالب بدرهم إلا بعد شهادة حَكَم، وأما الحَكَم فلا بد من الحَكَمين بعد جمع العَيْن. ووكلنا إليك هذا الخَطَبَ، ولك كل ما تختار اليابس أو الرطب، فإن جعلتَ حَكَمين كاذبين، فنقبلهما بالرأس والعين، ولا ننظر إلى الكذب والمين، بيد أننا نستفسرهما بيمين الله ذي الجلال، وعليهما أن يحلفوا* إظهاراً لصدق المقال، ثم نهلهما إلى عام، ونمدّ يد المسألة إلى خبير علام، فإن لم تتين إلى تلك المدّة أمانة الاستجابة، فُنشهد الله أنا نُقرّ بصدقك من دون الاسترابة، ونحسبك من الصادقين.

وأعجبني لِمَ تصدّيتَ لتأليف الكتاب، وأيّ أمر كتبتَ كالنادر العجائب، بل جمعتَ فضلة أهل الفضول، واتبعتَ جهلات الجهول، وما قلت إلا قولاً قيل من قبلك، ونسج بجهل أكبر من جهلك، وما نطقت بل سرقت بضاعة الجاهلين. وما نرى في كلامك إلا عبارتك التي نجد ريح كسَهك الحيتان المتعفنة، وتن الجيفة المنتنة، ونراه مملوّاً من تكلفات باردة ركيكة، وضحكة الضاحكين. وفعلتَ كل ذلك لرُغفان المساجد، وابتغاء مرضاة الخلق كالواجد، لا لله رب العالمين. يا من ترك الصدقَ ومانَ، قد نبذت الفرقان، ولا تعلم إلا الهذيان، وتمشي كالعمين، لا تعلم إلا الاختراق في مسالك الزور،

* يبدو أنه سهو والصحيح: "يحلفوا". (الناشر)

والانصلات في سكك الشرور، ولا تتقي برائن الأسد وتسعى كالعُمي والعُور، وإنا كشفنا ظلامك، ومزقنا كلامك، وستعرف بعد حين. أتؤمن ب حياة المسيح كالجھول الوقیح، وتحسبه كأنه استثنی من الأموات، وما أقمت علیه دليلاً من البيّنات والمحكمات، ولا من الأحاديث المتواترة من خير الكائنات، فكذبت في دعوى الإثبات، وباعدت عن أصول الفقه يا أبا الترهات. أيها الجھول العجول، المخطئ المعذول، قف وفكر برزاة الحصاة، ما أوردت دليلاً على دعوى الحياة، وما اتبعت إلا الظنّيات، بل الوهميات. ونتيجة الأشكال لا يزيد على المقدمات، فإذا كانت المقدمتان ظنّيتين فالنتيجة ظنّية، كما لا يخفى على ذوي العينين. وإن كنت لا تفهم هذه الدقائق، ولا تدرك هذه الحقائق، فسأل الذين من أولي الأبصار الرامقة، والبصائر الرائقة، وانظر بعين غيرك إن كنت لا تنظر بعينك في سيرك، واستنزل الري من سحاب الأغيار، إن كنت محروماً من درّ الأمطار.

ألا تعلم يا مسكين أن قولك يُعارض بيّنات القرآن، ويخالف مُحكمات الفرقان؟ وقد تبين معنى التوفي من لسان سيّد الإنس ونبیّ الجنّ، وصحابته ذوي الفهم والعرفان. وأيّ فضل لمعنى العوام، بعد ما حصص المعنى من خير الأنام، ومن ياباه إلا من كان من الفاسقين؟

فتندّم على ما فرطت في جنب الله وبيّناته، واتبعت المتشابهات

وأعرضتَ عن محكماته، ووثبتَ كخليع الرسن، وتركتَ الحق كعبدةِ الوثن. وإني نظرتُ رسالتك الفينة بعد الفينة، فما وجدتها إلا راقصة كالقينة، ووالله إنها خالية عن صدق المقال، ومملوءة من أباطيل الدجال، فعليك أن تنقُد المبلغ في الحال، لنريك كذبك ونوصلك إلى دار النكال. وعليك أن تجمع مالك عند أمين الذي كان ضمينا بيقين، وإلا فكيف نوقن أننا نقطف جناك إذا أبطلنا دعواك، وأريناك شقاك؟ يا أسير المتربة، لستَ من أهل الثروة، بل من عَجْزة الجهلة، فاتركُ شَنْشِنَةَ القِحَّة، واجمعِ المالَ وجانبِ طرقِ الفِرية والتعلَّة، فواهاً لك إن كنتَ من الصادقين الطالبين، وآهاً منك إن كنتَ من المعرضين المحتالين. وقد أوصينا واستقصينا، ونقحنا تنقيح من يدعو أخا الرشد ويكشف طرق السَّدَد، وأكملنا التبليغ لله الأحد، وننظر الآن أجمع المال وثرِي العهد والإيمان، أو تُرِي الغدر وتتبع الشيطان كالمفسدين.

ووالله الذي يُنزل المطر من الغمام، ويُخرج الثمر من الأكمام، إني ما مُهَضتُ لطمعٍ في الإنعام، بل لإخزاء اللئام، ليتبين الحق وليستبين سبيل المجرمين، وإن الله مع المتقين. ووالله الذي أعطى الإنسان عقلاً وفكراً، لقد جئتُ شيئاً نُكراً، وأبقيتَ لك في المخزيات ذكراً. وقد كتبنا من قبل اشتهاراً، وواعدنا للمجيبين إنعاماً، وأقررنا إقراراً، فما قام أحدٌ للجواب، وسكتوا كالبهائم والدواب، وطارت نفوسهم شعاعاً، وأرعدت فرائصهم ارتباعاً،

وأكّبوا على وجوههم متندّمين.

أفأنت أعلم منهم أو أنت من المجانين؟ إنهم كانوا أشدَّ كيداً منك في الكلام، بل أنت لهم كالتّلام، فكان آخر أمرهم خزي وخذلان وقهر رب العالمين. وإن الله إذا أراد خزي قوم فيعادون أوليائه، ويؤذون أحبّاءه، ويلعنون أصفياءه، فيبارزهم الله للحرب، ويصرف وجههم بالضرب، ويجعلهم من المخذولين. ألا تفكرون في أنفسهم أن الله يُنزل نُصرتَه لنا بجميع أصنافها، ويأتي الأرض ينقصها من أطرافها، ويحفظنا بأيدي العناية، ويسترننا بملاحف الحماية، فلا يضرّنا كيد المفسدين؟ يعلم من كان له ومن كان لغيره، وينظر كل ماش في سيره، ولا يهدي قوما مسرفين، ويبيّر الفاسقين ويمحو أسماء المفتريين من أديم الأرضين. هو الغيور المنتقم، ويعلم عمل المفسد الفتان، ويأخذ المفتريين بأقرب الأزمان، فيُنزل رجزه أسرع من تصفّح الأجنان. فتوبوا كالذين خافوا قهر الرحمن، وأنابوا قبل مجيء يوم الخسران، وغيروا ما في أنفسهم ابتغاء مرضاة الله، يا معشر أهل العدوان. اطلبوا الرحم وهو أرحم الراحمين. فتندّم يا مغرور على جهالتك، واعتذر من فرطاتك، وفكّر في خسرك وانحطاط عرضك وانكشاف سترك، وازدجر كالخائفين.

واعلم أنه من نهض ليستقري أثر حياة عيسى، فما هو إلا كجادع مارن أنفه بموسى، فإن الفساد كل الفساد ظهر من ظنّ حياة المسيح، واسودّت الأرض من هذا الاعتقاد القبيح، ومع ذلك

لا تقدرون على إيراد دليل على الحياة، وتأخذون بأقوال الناس ولا تقبلون قول الله وسيد الكائنات. وتعلمون أنه من فسّر القرآن برأيه وأصاب فقد أخطأ، ثم تتبعون أهواءكم ولا تتقون من ذراً وبرا، وتتكلمون كالمجترئين. وإذا قرئ عليكم آيات الفرقان فلا تقبلونها، وإن قرئ نصف القرآن، وإن عرض غيره، فتقبلونه مستبشرين. لا تلتفتون إلى كتاب الله الرحمن، وتسعون إلى غيره فرحين. وليت شعري! كيف يجوز الاتكاء على غير القرآن بعد ما رأينا بينات الفرقان؟ أتوصلكم غير القرآن إلى اليقين والإذعان؟ فأتوا بدليل إن كنتم صادقين.

يا حسرة على أعدائنا! إنهم صرفوا النظر عن صحف الله الرحمن، وما طلبوا معارفها كطلاب العرفان، وأفنوا زمانهم وعمرهم في أقوال لا توصلهم إلى روضات الإذعان، ولا تسقيهم من ينابيع مطهّرة للإيمان، وما نرى أقوالهم إلا كصواغين باللسان.

فيا معشر العُمي والعُور.. اتقوا الله ولا تجترئوا على المعاصي والفجور، وتخيروا طريقاً لا تخشون فيه مسّ حيف ولا ضرب سيف، ولا حمة لاسع ولا آفة واد واسع، وقوموا لله قانتين. وفكروا في قولي.. هل صدقتُ فيما نطقتُ، أو ملتُ فيما قلتُ، وتفكروا كالخاشعين. ما لكم لا تستعدّون لقبول الحجّة وتزيغون عن الحجّة، تركضون في امتراء الميرة، ولها تتركون أقارب العشيرة. وما أرى

فيكم من ترك لله الأقباب والأحاب، وجدَّ في الدين ودأب. لم لا تتأدَّبون بأداب الصلحاء، ولا تقتدون بطرق الأتقياء؟ أنكرتم الحق وما رأيتم سُقياه، وما وطأتم حصاه، وما استشرفتم أقصاه، وتركتم الفرقان وهُداه، وكنتم قوما عادين.

يا أهل الفساد والعناد.. اتقوا الله رب العباد. أين ذهب تقاكم؟ وأضلكم علمكم وما وقاكم. لا تفهمون القرآن ولا تمسّون الفرقان، فأين غارت مزاياكم، وأين ذهب رِيّاكم؟ ما أجد كلامكم مؤسَّسًا على التقوى، وأجد قلوبكم متدنسة بالطغوى. فما بال قرب* كان لها كمثلكم الملاحُ، وما بال أرض يجرثها كحزبكم الفلاحُ؟ ولا شك أنكم أعداء الدين وعدا الشرع المتين. ونعلم أن قصر الإسلام منكم ومن أيديكم عفا، ولم يبق منه إلا شفا، ولولا رحمة ربي لأحاطه الدجى، وكان الله حافظه وهو خير الحافظين.

ألا تنظرون أنكم كم فحجّ سلكتم، وكم رجلٍ أهلكتم، وكم بدعٍ ابتدعتم، وكم قومٍ خدعتم، وكم عرضٍ اختلستم، وكم ثعلبٍ افترستم؟ أمّا الآن فالحق قد بان ورحم الرب الرحيم، واستنار الليل البهيم، وأنار الدين القويم، وظهر أمر الله وكنتم كارهين. إن لله في كل يوم نظرةً، فنظر الدين رحمةً، ووجده غرضًا لسهام الأعداء، وكالوحيد الطريد في البيداء، فأقامني برحمة خاصة في أيام إقلال

* هذا سهو الناسخ والصحيح "القوارب". (الناشر)

وخاصة، ليجعل المسلمين من المنعمين، ويعطيهم ما لم يعط
لآبائهم ويرحم الضعفاء، وهو أرحم الراحمين.

وما قمتُ بهذا المقام إلا بأمر قدير، يبعث الإمام ويعلم الأيام،
حكيم عليم يرى أيام الغي والضلال، وصراصر الفساد في النساء
والرجال. تنهى الخلق في التخطي إلى الخطايا، وعقروا مطا المطايا،
ودفنوا الحق في الزوايا، ولمع الباطل كالمرايا، فرأى هذا كله ربُّ
البرايا، فبعث عبداً من العباد، عند وقت الفساد، أعجبتهم من فضله
يا جمرَ العناد؟ فلا تتكثروا على الظنون، والله أسرار كالدّر المكنون،
يبلي عباده في كل زمان، وكل يوم هو في شان.

وأقسم بعلامِ المخفّيات، ومُعِينِ الصادقين والصادقات، أني من
الله رب الكائنات. ترتعد الأرض من عظمتها، وتنشق السماء من
هيبتها، وما كان لكاذب ملعون أن يعيش عمرا مع فرّيته، فاتقوا الله
وجلال حضرته. ألم يبق فيكم ذرّة من التقوى؟ أنسيتم وعظ كفّ
اللسان وخوف العقبي؟ يا أيها الظّائون ظنّ السوء.. تعالوا ولا تفرّوا
من الضوء.

يا قوم إني من الله.. إني من الله.. إني من الله، وأشهد ربي أني
من الله. أو من بالله وكتابه الفرقان، وبكل ما ثبت من سيّد الإنس
ونبيّ الجنّ. وقد بُعثتُ على رأس المائة، لأجدّد الدين وأنور وجه
الملة، والله على ذلك شهيد، ويعلم من هو شقي وسعيد. فاتقوا الله

يا معشر المستعجلين.. أليس فيكم رجل من الخاشعين؟ أتصلون على الأسود ولا تميزون المقبول من المردود؟ وفي الأمة قوم يلحقون بالأفراد، ويكلّمهم رهم بالحبة والوداد، ويُعادي من عاداهم ويوالي من والاهم، ويُطعمهم ويستقيهم، ويكون فيهم وعليهم ولهم، ويُحاطون من رب العالمين. لهم أسرار من رهم لا يعلمها غيرهم، ويشربُ قلبهم هوى المحبوب ويُوصلون إلى المطلوب. ينورُ باطنهم ويترك ظاهرهم في المومنين، فطوبى لفتى يأتّم بأداهم، وتنكسر جبائر مكره في جناهم، ويسرج جواد الصدق لصحبة الصادقين.

هذا ما كتبنا وألّفنا لك الكتاب، فإذا وصلك فأملِ الجواب. وحاصل الكلام أنّا قائمون للخصام، لنذيقك جزاء السهام، ومن آذى الأحرار فأباد نفسه وأبار. فاسمعُ مني المقال، إني أرقب أن تجمع المال، فإذا جمعت وأتممت السؤال، فاعلم أن أحمد قد صال وأراك الوبال والنكال. يا مسكين إن موت عيسى من البديهيات، وإنكاره أكبر الجهلات، ولكن صدئ قلبك وغلظ الحجاب، فرددتُ وتقاذفتُ بك الأبواب، فلا تصعَى إلى العظام، ويؤذيك الحق كالكلمِ المحفظات، وأرداك تباهيك بكتابك وهو أصل تباك. وإني عرفت سرّك ومعماه، وإن لم يدّر القوم معناه. وما تريد إلا أن تفتتن قلوب السفهاء، وتخدع الجهلاء، لتكون لك عزّة في الأشقياء، وتفوز في الأهواء، وهذا خاتمة الكلام، فتدبّر كالعقلاء، ولا تقعد كالعميين.

هداك الله هل تُرضي العواما لكي تستجلبنّ منهم حُطاما
 وهل في ملة الإسلام أثرٌ من الكلم التي تَبْرِي حِصاما
 أعندك حُجّةٌ إجماعٌ قومٍ أضاعوا الحق جهلا واهتضاما
 ومثلك أُمَّةٌ قتلتُ حسيّنا إذا وجدتُ كمنفرد إماما

تَمَّتْ

الْوَصِيَّةُ لِلَّهِ لِقَوْمٍ لَا يَعْلَمُونَ

أيها العلماء والمشايخ والفقهاء.. إني رأيت تعاميكم في مصنّفاتكم، فتأجج قلبي لجهلاتكم. إنكم تسرون في المعامي، ولا تخافون جَوْبَ الحوامي [♦]. وإني عَفْتُ أن أفصّل حالاتكم، وأبيّن مقالاتكم. أتعاميتم مع سلامة البصر، وتجاهلتم مع العلم والخبر؟ كان عندكم العقل والفهم الصافي، ولكن النفس صارت ثالثة الأثافي. إن حبّ العين سلّب عينيكم، والطمع في كرم الناس محقّ كريميتيكم. أقرأتم العلوم للقري، وتعلّمتم لرغفان القري؟ وباعدتم عن الإخلاص الذي هو شعار الأنبياء وحلية الأولياء. تركتم الشريعة واتبعتم النفس الدنيّة، وصرتم قوما خاسرين. أكلتم الدنيا بأنواع الدقاير*، وما نجا من فخكم أحدٌ من القبيل والديبر. طوراً تلدغون في حلل العظّات، وأخرى بالكلم المحفظات. وأجد فيكم ما يسمّ بالإخلاق، وما أجد شيئاً من محاسن الأخلاق. فإنّا لله على مصيبة الإسلام، وإمحال رياض خير الأنام. وإنا نكتب قصّتكم متجرّعا بالغصص، ومتورّعا من مبالغات القصص. إنكم جعلتم الإسلام مصطبة المقيفين، أو خان المدروزين والمشقّشين. اتقوا الله ويوم

♦ يبدو أنه سهو الناسخ وربما هو "الموامي" كما ورد كثيرا في كتب حضرته عليه السلام.

(الناشر)

* هذا سهو الناسخ والصحيح "الدقارير". (الناشر)

الأهوال، وحلول الآفات وتغيُّر الأحوال، واذكروا الحمام ومساورة الإعلال، وفضوح الآخرة وسوء المآل. واتركوا الكبر والعُجب والخيلاء، فإنها لا يزيدكم* إلا الغطاء. ولا تصحَّ صفة العبودية إلا بعد ذوبان جذبات الحيَّة، أعني هوى النفس الذي هو على بحر السلوك كزبد، فلا تُطيعوا الزبد كعبد، واطلبوا بحر ماء معين.

واعلم يا طالبَ الحقِّ الأهمِّ، أن علماء السوء ما يخرجون من الفم هو أضرُّ على الناس من السمِّ، ومن كلِّ بلاء يوجد على وجه الأرضين، فإن السموم إذا أضرت فلا تضرُّ إلا الأجسام، وأما كلامهم فيضُرُّ الأرواح ويُهلك العوام، بل ضررهم أشد وأكثَر من إبليس اللعين. يلبسون الحق بالباطل، ويسلِّون سيوف المكر كالقاتل، ويُصرون على كلمات خرجت من أفواههم وإن كانوا على خطأ مبين. فاستعدُّ بالله منهم ومن كلماتهم، واجتنبهم وجهلاتهم، وكن مع العلماء الصادقين. ولا تضحك على مواجيد الأولياء، والأسرار التي كُشفت على تلك الأصفياء، فإنهم مظاهر نور الله وينابيع ربِّ العالمين. واعلم أنهم قوم صادقون في الأحوال، والمحفوظون في الأفعال والأعمال، ويُعلِّمون من أشياء لا يعلمها عقل العلماء، ويُعطون من علم لا يُعطى مثله أحدٌ من العقلاء. فلا يُنكرهم إلا الذي فيه بقية من مسِّ الشيطان، وأثرٌ من آثار الجانِّ، ولا يكفرهم

* يبدو أنه سهو والصحيح: "تزيدكم". (الناشر)

إلا الأعمى الذي ليس همّه إلا تكفير الصالحين.

ألا إن لله عباداً يحبُّهم ويحبُّونه، آثرهم وملاً قلوبهم من حبه وحبّ مرضاته، فנסوا أنفسهم استغراقاً في محبة ذاته وصفاته، فلا تُعلّق همّتك بإيذاء قومٍ لا تعرفهم ومنازلهم، وإثك لا تنظر إليهم إلا كعميين. إنهم خرجوا من خلقٍ كان مشابه خلقٍ وجودك، وسعوا إلى مقام أعلى وتباعدوا عن حدودك، ووصلوا مكاناً لا تصل إليها أنظارك، ولا تدركها أفكارك، ونزلوا بمنزلة لا يعلمها إلا رب العالمين. فلا تدخل في أقوالهم كمجتريين، ولا تتحرك بسوء الظنون وقلة الأدب معهم كالمعتدين، فيعاديك ربك وتلحق بالخاسرين. فإياك يا أخي أن تقع في ورطة الإنكار، وتلحق بالأشرار، وتهلك مع الهالكين.

واعلم أن كتاب الله الرحمن، كسبعة أبحرٍ من أنواع نكات العرفان، يشرب منها كل طير بوسع منقاره، ويختار حقيراً ولا يشرب إلا قدراً يسيراً. والذين وسّع مداركهم عنايات ربه، فيشربون ماء كثيراً وهم أولياء الرحمن وأحباء أحسن الخالقين. يهبُّ على قلوبهم نفحات إلهية، فيتعالى كلامهم، فيجهله عقول الذين ليسوا من العارفين. والذين يُعطون أفعالاً خارقة للعادة، وأعمالاً متعالية عن طور العقل والفكر والإرادة، فلا تعجب من أن يُعطوا كلمات، ورزقوا من نكات تعجز العلماء عن فهمها، فلا تنهض كالمستعجلين.

وإن كنت من الذين أراد الله بهم خيراً، فبادرْ وسرِّ إليهم سيراً، ودعْ زوراً وضيراً، وكن من الحازمين. وكم من كلمات نادرات بل محفظات، تخرج من أفواه أهل الله إلهاماً من الله الذي هو مؤيد المهتمين، فينهضون لله ويبلغونها ويُشيعونها، فتكون سببَ مرضاة الله كهفِ الأمورين. ثم تلك الكلمات بعينها بغير تغيير وتبديل تُخرج من فمٍ آخر، فيصير قائلها من الذين تركوا الأدب واجترعوا وصاروا من الفاسقين. فتأدّب مع أهل الله ولا تعجلْ عليهم ببعض كلماتهم. وإن لهم نياتٍ لا تعرفها، وإنهم لا ينطقون إلا بإشارة ربهم، فلا تُهلك نفسك كالمجترئين. لهم شأن لا يفهمه إنسان، فكيف مثلك فتان، إلا مَنْ سلك مسلكهم، وذاق مذاقهم، ودخل في سلكهم، فلا تنظرُ إلى وجوه مشايخ الإسلام وكبراء الزمان، فإنهم وجوه خالية من نور الرحمن، ومن زيِّ العاشقين. ولا تحسب كلمات المحدثين المكلمين ككلماتك أو كلمات أمثالك من المتعسفين. فإنها خرجت من أنفاس طيبة، ونفوس مطهّرة مُلهمة، وهي قريب العهد من الله تعالى كثر غصٌّ طريٌّ أخذ الآن من شجرة مباركة للأكلين. والقوم لما لم يفهموا كلمات لطيفة دقيقة حكيمة إلهية، فعزّوا أهلها إلى الفساق والزنادقة والكفار وأهل الأهواء. فيا حسرة عليهم وعلى تلك الآراء، إنهم قد هلكوا إن لم يتوبوا ولم يرجعوا منتهين. والأحرار ينتقلون من القالب إلى القلب، وهم انتقلوا من القلب إلى القالب، ونبذوا كل ما علموا وراء ظهورهم للبخل

الغالب، فأصبحوا كقشر لا لبَّ فيه وأكلوا الجيفة كالثعالب، وكفروني ولعنوني من غير علم ليستروا الأمر على الطالب، وقالوا كافر كذاب، واتبعوا دأب الذين خلوا من قبلهم من أهل التباب. وكانوا يقولون من قبل إنَّ رجلا لا يخرج من الإيمان باختلافات ليس فيها إنكار تعليم القرآن، وإنما الحكم بالكفير لمن صرَّح بالكفر واختاره ديننا، وأنكر دين الله القدير وجحد بالشهادتين كالأعداء اللئام، وخرج عن دين الإسلام، وصار من المرتدِّين. وقالوا لو رأينا في هذا الرجل خيرا أو رائحةً من الدين ما كفرنا وما كذبنا وما تصدَّينا للتوهين. كلا، بل قستْ قلوبهم من الإصرار على الإنكار، ودعاوى الرياء وفتاوى الاستكبار، فطبع عليها طابع وما وُفقوا أن يرجعوا مع الراجعين. ولو شاء الله لأصلح بالهم وطهر مقالهم، وجذبهم وأراهم ضلالهم، ولكنهم زاغوا وأحبَّوا عيوبهم، فغضب الله عليهم وأزاغ قلوبهم، وتركهم في ظلمات، وجعلهم كصم وعمين.

أيها العجول، اتق الله وخفَّ أولياء الله الودود، ولا خوفك من الأسود، وإذا رأيت رجلا تبثَّل إلى الله، وما بقي له شيء يشغله عن ربِّه، فلا تتكلم فيه ولا تتجرأ على سبِّه، أتحارب الله يا مسكين، أو تقتل نفسك كالجنانين؟ واعلم أن أولياء الرحمن يُطردون ويُلعنون ويُكفرون في أوائل الزمان، ويقال فيهم كل كلمة شرِّ، ويسمعون من قولهم كل الهذيان، ويسمعون أذى كثيرا من قومهم ومن أهل العدوان، ويسمّونهم أجهل الناس وأضلَّ الناس، مع كونهم من أهل

العارفة والعرفان، ويسمّونهم دجالين وعبدة الشيطان؛ ثم يجعل الله الكثرة لهم، ويؤيدون ويُصرون ويُبرأون مما يقولون، ويأتيهم الدولة والنصرة من عند الله في آخر أمرهم من الله المنان، وكذلك جرت عادة الله الديان، أنه يجعل العاقبة للمتقين.

وإذا جاء نصره فترى قلوب الناس كأنها خلقت خلقاً جديداً، وبُذلت تبديلاً شديداً، وترى الأرض مخضرة بعد موتها، والعقول سليمة بعد سخافتها، والأذهان صافية والصدور مطهرة بإذن قادر قيومٍ ومعين. فيسعون إليهم بالحبة والوداد، نادمين من أيام العناد، ويشنون عليهم باكين قائلين إنا تُبنا فاغفر لنا ربنا إنا كنا خاطئين، ومن يرحم إلا هو وهو أرحم الراحمين. هذا مآل الذين سعدوا وفتحت أعينهم وجذبوا، وأمّا الذين شقوا فلا يرون حتى يُردّون إلى عذاب مهين.

رب أرنا أيامك، وصدّق كلامك، وفرّج كرباتنا، واغفر زلاتنا، وارض عنا وتعال على ميقاتنا، وانصرنا على القوم الكافرين. وصلِّ وسلِّم وبارك على رسولك خاتم النبيين. آمين ربنا آمين.